الكتاب الأول

ما هي النهضة؟ لسلامة موسى

تحليل وعرض: أ.د. السيد أحمد فرج[١]

التعريف بسلامة موسى: (١٣٠٥ - ١٣٧٧هـ / ١٨٨٨ - ١٩٥٨م) في قرية كفر العفي بمحافظة الشرقية، ولد سلامة موسى في يناير سنة ١٨٨٨م وتلقى تعليمه الأولى بها، ثم التحق بمدرسة الزقازيق الابتدائية، فلما حصل على الشهادة الابتدائية، انتقل إلى القاهرة فالتحق بالمدرسة التوفيقية الثانوية. وفى سنة ١٩٠٧م سافر إلى باريس، ثم رحل منها في سنة ١٩٠٨م إلى لندن، وهناك انخرط في جماعة العقليين، وفى الجمعية الفابية وبفلسفتيهما تكون عقله فآمن بالاشتراكية الفابية، كما آمن بقيمة دور العقل في التقدم البشرى، وكان أول ثمار هذه المرحلة أن كتب كتاب «مقدمة السوبرمان» بإنجلترا في سنة ١٩٠٩م الذي نشره جورجي زيدان صاحب دار الهلال بالقاهرة في سنة ١٩١٠م رأى فيه سلامة موسى حتمية تلازم التطور البيولوجي والتطور الاجتماعي، كما رأى أن تطور صفات الإنسان مثل ضخامة الرأس، وصحة البدن، وقدرة الجسم على التكيف مع البيئة، وتحمل الأمراض، والدأب على العمل - وهى صفات يجب أن يحصل عليها الإنسان - تؤهله لكي يكون «سوبرمان» = إنسان أعلى يعتمد على عقله وليس على عواطفه، ويتحول عنده طرب العاطفة إلى طرب الذهن بحيث يجد أن اكتساب حقيقة علمية أجدى له من أية شهوة وأحب. وعند ذلك يمسك الإنسان بيده مفاتيح الطبيعة، فيتسلط بها على الأقدار نفسها - بحسب تعبير سلامة موسى[٢].

---

(١) أستاذ الأدب العربي بكلية التربية جامعة المنصورة

(٢) راجع الفصل السادس من كتاب: السوبرمان.

ويعنى سلامة موسى بالإنسان الرجل والمرأة على السواء، إذ إن المرأة إنسان يجب عليها أن تنبذ الحجاب، فلا تُحبس به لأن ذلك يؤثر برأيه تأثيرا سلبيا في عقلها وذهنها وأعصابها، وبالتالي في كفاءتها، ويوجز سلامة موسى رأيه في هذه المسألة بقوله: «وخلاصة القول: إن في العالم روحا جديدة غايتها الانطلاق من قيود التقاليد، وتحسين نسل الإنسان والسير به نحو «السوبرمان» وإزالة جميع العراقيل التي تعيق طريقه إلى التقدم سواء كانت اجتماعية أو دينية» (١).

كان سلامة موسى قبل أن يسافر إلى أوربا أيام أن كان تلميذا بالتوفيقية الثانوية يداوم على قراءة مجلة المقتطف التي كان يصدرها يعقوب صرّوف. وكانت هذه المجلة تهتم بنشر الفكر المادي، وكان من أهم كتابها المشتغلين بنشره شبلي شميل، فقرأ على صفحات المقتطف خلاصة نظريات: بوخنر، ولامارك، وداروين وغيرهم من الذين فسروا بداية الحياة تفسيرا ماديا بحتا، أي بدون أن يخلقها خالق، برأيهم والعياذ بالله، بطريقة غير معهودة، ابتداء من عملية التفاعل الكيميائي الأولى الذي نتج عنه جرثومة الحياة، التي تولد عنها جميع أنواع الأحياء بدءا من الخلية الأولى في الماء، التي تولد منها خلايا كونت نسيجا حيا، ثم تولد منه حيوان عضوي توفرت له شروط الحركة، فأمكن له الخروج من الماء إلى اليابسة، بعدها بدأت الأنواع الحيوانية تظهر ثم تتأصل في أنواع، وكلما صمد نوع وتكيف مع البيئة كلما ارتقى، فكأن هناك صراعا بين الرغبة في البقاء الكامنة في الحيوان وعوامل البيئة، في حركة صراع، هو الصراع الذي نشأ عنه ارتقاء الأنواع. وأدى إلى استقلال بعض الأنواع حتى انتهى بظهور الإنسان.

قرأ سلامة موسى الفكر المادي على صفحات المقتطف وفتن به فلما سافر إلى أوربا وكان في التاسعة عشرة من عمره، وجد نفسه أمام النظريات المادية وجها لوجه

(١) راجع الفصل ١٢ من السوبرمان.

فقرأ نظرية التطور في أصولها، كما قرأ فلسفة نيتشه وشوبنهور، وقرأ برناردشو والاشتراكية الفابية، وقرأ ويلز الذي يمزج في كتاباته بين العلم والأدب. وكانت قراءات سلامة موسى بدون مُوَجِّه يبين له فيما تتوافق هذه النظريات، وفيما تتناقض وتتضاد، كما لم يكن له القدرة على قبول واحدة منها ودراستها دراسة دقيقة والتمسك بها دون سواها، وانتهى أمره مع هذه النظريات بأن أخذ من كل منها ما راق له بطريقة انتقائية، وكون لنفسه من كل ذلك مذهبا انتقائيا في المعارف والعلوم، يقوم في مجمله على الإيمان بالمادة، ولا شيء غير المادة مع رفض كل ما هو غيبي.

آمن سلامة موسى بنظرية داروين الحيوية، وأفكار نيتشه المفرطة في فرديتها لأنها تعلى من شأن الإنسان حتى يصير إنسانا أعلى (سوبرمان) وأفكار شوبنهور، ثم قرأ الماركسية التي تفسر مراحل التاريخ تفسيرا جدليا ماديا. واختزن كل هذه الأفكار في داخله ورأى أنه بها يمكنه إعادة بناء العالم، كما يريده.

وعندما عاد سلامة موسى إلى مصر أخذ يزاوج بين قوانين التطور الحيوي التي أصَّلها داروين، وبين مثيلتها في الحياة الاجتماعية عند هربرت سبنسر، لأنه كان يعتقد بأن الحياة منصهرة في بوتقة عظمى، ولا تزال تخرج عناصرها ومركباتها على الدوام. ومن ثم فقد آمن بأن الحياة في تطورها المستمر تسير في ثلاث مراحل:

الأولى: تصارع عوامل البقاء والارتقاء. وهى المرحلة الحيوية.

الثانية: المرحلة الاجتماعية، لأن الإنسان يحتاج إلى تبادل المنافع مع الآخرين من بني جنسه.

الثالثة: مرحلة التحرر من الغيبيات حيث يعيش الإنسان بملكاته العقلية الخالصة المتمثلة في العقل والنشاط الوجداني، حيث يسير التطور الإنساني من تلقاء نفسه إلى الارتقاء.

هكذا فكر سلامة موسى، وهو في العشرينيات من عمره.

والباحث عن العناصر النفسية والعقلية المكونة لسلامة موسى لن يعييه أن يجدها في كتاباته خاصة في كتاب «تربية سلامة موسى»، وكتاب «هؤلاء علموني»، وكتاب «جورج برناردشو» وهى كتب صدرت في أخريات حياته ومات عنها. وفى هذه الكتب دوَّن تاريخه الخاص في إطار فلسفته العامة بحيث تبدأ منذ سفره إلى أوربا سنة ١٩٠٧م. وهو تاريخ ميلاده الثقافي، أو بدء وعيه العلمي، ولقد نشر في الكتاب الأول تجاربه منذ أن سافر إلى أوربا سنة ١٩٠٧م في الفكر والعمل، وختمها بما أسماه مرحلة النصر لمبادئه وأفكاره ومثله العليا التي عمل لها زهاء نصف قرن، لكي يؤسس مذهبا في العلم والاشتراكية والحرية التي رأى أنها تحققت بإنجاز ثورة يوليو ١٩٥٢م التي عدها ثمرة كفاحه ونضاله.

وفى الكتاب الثاني والثالث: حدد سلامة موسى منابع اتجاهات العلم والفكر والأدب التي كونت عقله، وتمكنت من تفكيره، وحددت تكوينه الثقافي من خلال داروين = (العلم)، وبرناردشو = التزاوج بين العلم والأدب)، فعن طريق برناردشو عرف الاشتراكية الفابية، وطبيعة العلاقة بين العلم والأدب والمجتمع، وتأثيرها في حراك المجتمع إلى التقدم، والشيء نفسه عرفه عن طريق ويلز، كما تأثر بإنسانية تولستوي وديستويفسكي، وبجدلية التاريخ عند كارل ماركس، والأدب الاشتراكي الواقعي عند مكسيم جوركي لسان حال الثورة البلشفية، كما تأثر بذرائعية جون ديوي في التربية، وعرف قوة الإنسان في فلسفة نيتشه وشوبنهور، ومع أن كل هؤلاء عظماء بتقدير حضارة الغرب. فإن سلامة موسى لم يتأثر بعظماء الشرق الذي ولد فيه وقبر، ولهذا فسيظل فكر سلامة موسى منقوصا.

وعندما عاد سلامة موسى إلى مصر سنة ١٩١٣ أصدر كتابا عن الاشتراكية، كان أول ما كتب فيها باللغة العربية، وفى كتابه عن الاشتراكية نقل ما فهمه عن الاشتراكية الفابية بإنجلترا، وهى الاشتراكية التي دعا إليها الإنجليز في نهاية

القرن١٩ التاسع عشر وهى دعوة إلى الديمقراطية، وتحقيق العدالة الاجتماعية بضمان حقوق العمال في حدود إطار القانون، مع الدعوة إلى تثقيف العمال بالثقافة الاشتراكية، والمطالبة بتأميم المرافق العامة، كما ضمَّن في هذا الكتاب نفسه البرنامج العملي الذي يجب أن يقوم عليه النضال الاشتراكي في مصر.

وفى العام التالي ١٩١٤م أصدر مجلة «المستقبل» وهى مجلة ثقافية أسبوعية صدر منها ١٦ ستة عشر عددا ثم توقفت عن الصدور.

وفى سنة ١٩١٨ بدأ يعمل من أجل تكوين حزب اشتراكي، ولكن لم يتم إنشاؤه إلا في سنة ١٩٢٠م كان هو المسئول الفكري عنه والمنظر له، وواضع برنامجه، ولكن الحكومة ألغته بعد فترة قصيرة، وحتى ذلك الحين لم يكن سلامة موسى قد تعمق في الماركسية، ودرسها دراسة جيدة، ولكنه مع ذلك - حاول تبسيط النظرية الماركسية - وكتب عن ثلاثة من المفكرين الاشتراكيين هم: روبرت أوين، وبرودون، وكارل ماركس، ثم أخذ يحلل النظام السياسي الموجود بمصر، ويقترح أهمية التحول إلى النظام الاشتراكي.

وفى هذا الكتاب لم يقبل سلامة موسى رأى هربرت سبنسر الذي يرى فناء بعض الأنواع وبقاء البعض الآخر، وفسر حركة المجتمع بحتمية الوعي الإنساني الذي أطلق عليه الاستنباط، إذ إن الإنسان يستنبط من مراحل الحياة السابقة - بوعيه الإنساني، ما يفيده في المراحل اللاحقة، وهكذا دائما. وفى الكتاب نفسه طالب سلامة موسى بإلغاء دعائم المجتمع الرأسمالي التالية:

١- إلغاء الملكية الفردية إذ رآها استغلال فرد لمجتمعه.

٢- يجوز للفرد أن يمتلك أدواته ما لم يستغل العمال فيها.

٣- أن يعطى كل فرد في المجتمع بحسب حاجته وعمله.

٤- إلغاء المواريث الشرعية، لأن ما يؤخذ عن طريق الميراث يضاد تكافؤ الفرص.

ولكي يحقق سلامة موسى أهدافه الاشتراكية طالب بنشر الوعي الاشتراكي، وتحريض العمال على النضال من أجل تحقيق الاشتراكية.

وتعد الفترة من سنة ١٩٢٢م إلى سنة ١٩٢٩م من أخصب فترات حياة سلامة موسى الفكرية، فقد رأس تحرير مجلة الهلال وتولى مسئولية مطبوعات دار الهلال السنوية، وفى هذه الفترة كان قد درس الماركسية وتعمق فيها فكتب مقال التفسير المادي للتاريخ.

وكتاب: اليوم والغد سنة ١٩٢٧م وفيه بلور مرتكزات فكره الرئيسية حول ثلاثة منطلقات هي:

١- ضرورة البعث القومي باستخلاص مصريتنا من براثن الشوائب المجلوبة.

٢- تحرير المرأة المصرية، ومنحها فرصة أعمال الرجل سواء بسواء.

٣- الكفاح ضد سيطرة رأس المال الإمبريالي، بإنشاء النواة الصناعية لسوقنا القومي المستقل.

وضم كتاب «اليوم والغد» مقالات كان نشرها في عامي ١٩٢٥، ١٩٢٦ وفيه بلغ مشروعه الفكري غاية ما يصبو إليه من إرادة مفارقة العرب والإسلام، وكل ما هو شرقي، ودعا إلى المادية المطلقة بالتعامل مباشرة مع الطبيعة ونبذ ما عداها «فقد اخترعت لنا الطبيعة بحسب قوله العقل للتمييز، والحكم على غرائزنا، ومعرفة النافع والضار في أحوال معاشنا»[(١)] .

وفى هذا الكتاب دنا إلى الاصطباغ بالصبغة الأوربية البحتة وقال: «ولما لا

(١) راجع اليوم والغد، سلامة موسى، سلامة موسى للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٢٨، ص ٢٥.

نصطبغ بالثقافة والحضارة الأوربيتين في أحوال معاشنا، ونخلع عنا كل ما تقمصناه من ثياب الإسلام. إن هذا هو مذهبي الذي عملت له طول حياتي سرا وجهرا، فأنا نافر من الشرق (الإسلام) مؤمن بالغرب، وفى كل ما أكتب أحاول أن أغرس في ذهن القارئ تلك النزعات التي اتسمت بها أوربا في العصر الحديث، وأن أجعل قرائي يولون وجوههم نحو الغرب، ويتنصلون من الشرق» [(١)]. إنني أدعو إلى التنصل من آسيا (يعنى بالشرق وآسيا الإسلام)، والانضمام إلى أوربا، والإيمان بحضارتها وثقافتها[(٢)]، وأطالب بوجوب فصل الدين عن الدولة، وإلغاء التعليم الديني، وأن نندمج مع الإنجليز (المحتلين) فهم أرقى أمة في العالم صحة وعقلا وخلقا»[(٣)].

ولاشك أن هذه الدعاوى جعلت الغيورين على الدين واللغة العربية وثقافتها يهاجمونه في حياته كما فعل الأستاذ أحمد حسن الزيات في مجلة الرسالة، وبعد مماته كما فعل الدكتور محمد عمارة، الذي اتهمه بالمجتهد المخطئ، ومصطنع العمالة الحضارية[(٤)].

ولا بأس من أن يدعو سلامة موسى إلى ثقافة علمية، فذلك مقبول ولكن غير المقبول أن يصر على مهاجمة الدين الإسلامي. واللغة العربية على أساس أنهما يوجهان للتخلف، هل اجتهد سلامة موسى فأخطأ، أم أنه كان داعية لاتباع الغرب. والحقيقة أنه لم يكن مجتهدا مخطئا، بل كتب ما كتب بوعي كامل، وتاريخ العرب والإسلام يؤكد أن النهضة العلمية التي قامت بأيدي المسلمين هي أعظم

(١) راجع مقدمة اليوم والغد.
(٢) اليوم والغد، ص ٢٠٤.
(٣) اليوم والغد، ص ٣٧ – ٣٨.
(٤) راجع كتاب الدكتور محمد عمارة: سلامة موسى – اجتهاد خاطئ أم عمالة حضارية؟! دار الصحوة ودار الوفاء: الطبعة الأولى ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥.

openkan.com

وثبات التاريخ العلمي. وأن النهضة الأوربية قامت دعائمها على ما أخذته منها. لقد كانت ثقافة الإسلام والعربية هي الثقافة العلمية التجريبية التي أثمرت الحضارة الصناعية والتجارية، وتقدمت بالبشرية في كل توجهات العلم فضلا عن صيانتها لتمثل القيم العليا الدينية، والأخلاق النبيلة، التي تفتقدها حضارة الغرب اليوم.

وفى نوفمبر ١٩٢٩ أصدر سلامة موسى مجلتين الأولى شهرية هي «المجلة الجديدة» والأخرى أسبوعية هي «المصري» ولكن توقف إصدارهما بعد قليل بسبب قلة المال، وفي سنة ١٩٣٠ أنشأ «المجمع المصري للثقافة العلمية» ولكن الحكومة أقصته عنه.

وفى سنة ١٩٣٥ أسس جمعية «المصري للمصري» هدفت إلى مقاطعة البضائع الأجنبية ودعت إلى أن يكون التعامل التجاري مع المصريين. وساعد على رواج الفكرة أن طلعت حرب أنشأ شركة بيع المصنوعات المصرية - شركة من شركات بنك مصر- في شارع فؤاد، وقد نالت جمعية «المصري للمصري» قبول نخبة من المصرين فانضموا إليها أمثال: فتحي رضوان، ونور الدين طراف، وأحمد حسين، وعلى أمين، ومصطفى أمين، والشيخ أمين الخولي، والأمير عباس حليم.

وأعاد إصدار «المجلة الجديدة» بموافقة عبد الفتاح يحيى باشا رئيس الوزراء، وظل يصدرها إلى سنة ١٩٤٢م بجانب كتابة مقالات كان ينشرها في صحيفة البلاغ الوفدية التي كانت أفسحت له المجال بدءا من سنة ١٩٣١م.

وفى سنة ١٩٣٦م أصدر كتاب «الدنيا بعد ثلاثين سنة» وفيه تنبأ بقيام النظام الاشتراكي بمصر بعد ثلاثين سنة، أي في سنة ١٩٦٦م، وأن المجتمع المصري سيصبح مجتمعا اشتراكيا، وأن الدولة ستؤمم عصب النتاج، وسيكون الحكم لمصلحة الشعب، ولكن من أسف فقد جاءت الاشتراكية ثم أدبرت وقتلت الديمقراطية وقبرتها، ولم تقم بعد من مرقدها.

وفى سنة ١٩٤٦م أصدر سلامة موسى مجلة الشئون الاجتماعية، وكان رئيسا لتحريرها، كما شارك طه حسين في إصدار مجلة الكاتب المصري التي كان يملكها بعض اليهود بمصر، وهم أصحاب شركة ماتوسيان للدخان، وفيها كتب فصولا عن سيرته الذاتية نشرت فيما بعد ضمن كتاب: تربية سلامة موسى.

وفى هذه الفترة نشر سلامة موسى كتاب «البلاغة العصرية واللغة العربية» هاجم فيه اللغة العربية، ولم يكن هذا الهجوم على اللغة العربية هو الأول، فقد هاجمها كما هاجم الأدب العربي من قبل في كتاب «اليوم والغد» مع أنه كان معاصرا لنهضة أدبية يمثلها في مجال النثر: المنفلوطي ومصطفى صادق الرافعي، وزكى مبارك، وأحمد حسن الزيات وغيرهم، وفى مجال الشعر: شوقي وحافظ ومطران وشكري والعقاد وجماعة أبوللو. اتهم سلامة موسى اللغة العربية وآدابها بالجمود، وبالعجز عن أن تعبر عن متطلبات العصر. وقد ناقض بذلك نفسه بما كتبه في كتاب «النهضة الأوربية.. ما هي النهضة» الذي أكد فيه أن تعلم الأوربيين اللغة العربية، كان أهم دعائم النهضة الأوربية في مجالات العلم والأدب، وكل مجالات التقدم المدني.

في هذه الأثناء كان سلامة موسى يشارك كثيرا من المستشرقين الغربيين في حملتهم على اللغة العربية في العالم العربي، لأن اللغة العربية تربط العربي بالإسلام لأنها لغة القرآن، وعلى سبيل المثال فقد كان المستشرق «ليوطي» يقول: «إن اللغة العربية تربط من يتكلمها بالإسلام، لأن تعلمها يكون من القرآن، في حين أن من مصلحتنا جعله يتطور من خارج دائرة الإسلام»[1] وكان سلامة موسى يقول بخبث عن إرث العربية: «إنه تراث لغوى يحمل عقيدة اجتماعية (يقصد الإسلام)

(١) راجع د. محمد عابد الجابري: يقظة الوعي العروبي في المغرب ضمن كتاب: الوعي القومي في المغرب العربي، ص ٤٤، بيروت ١٩٨٦م.

يجب أن نحاربها، فالعربية ليست لغة الحضارة، إنها ليست لغة الديمقراطية والأوتومبيل والتليفون، بل لغة القرآن وتقاليد العرب».

لقد هاجم سلامة موسى اللغة العربية بضراوة، وزعم أنها لا تقدر على أن تواكب تطور العلوم العصرية، فكان زعمه ميلا عن الحق إن لم يكن سقوطا، هو نفسه سبق فقال في كتاب «ما هي النهضة»: إن العربية استطاعت على مدى ألف سنة أن تستوعب المصطلح العلمي في شتى المعارف والعلوم. وأقر بأن النابهين من علماء أوربا في القرون الوسطى كانوا ينصحون مواطنيهم بتعلم العربية إذا أرادوا التقدم. ولقد رد عليه الأستاذ أحمد حسن الزيات بمجلة الرسالة فنقض كل كلامه. ثم رد عليه الدكتور محمد عمارة بكتاب: «سلامة موسى اجتهاد خاطئ أم عمالة حضارية؟! في سنة ١٩٩٥ بعد موته بأربعة عقود.

كان سلامة موسى بجانب ما تقدم يكتب في صحيفة «أخبار اليوم» التي أسسها الأخوان على ومصطفى أمين سنة ١٩٤٤ ثم شارك في تحريرها.

وبعد أن وضعت الحرب العالمية الثانية أوزارها، ألف كتاب «حرية العقل في مصر» طالب فيه بإلغاء قانون المطبوعات، كما طالب بتأميم قناة السويس. وفى هذه المرحلة من حياته الفكرية كان يرى أن عصر الاشتراكية قد أذن بحلوله بمصر، وأن الاشتراكية ستنتصر حتما على الإمبريالية، بل كان يؤكد على أن الاشتراكية سوف تسود العالم.

وكان سلامة موسى يربط بين فكره الثوري، وحركة السياسة بمصر، لأنه كان يرى أن فكر المفكر الثائر مقدمة لعمل السياسي الثائر، وكان يطبق ذلك في سلوكه وفى كتاباته – خاصة بعد صدور صحيفة «الأخبار» اليومية التي كان يكتب فيها ويشرف على تحرير الصفحة العلمية فيها، ويكتب يومية يوم الأحد من كل أسبوع.

وفى سنة ١٩٥٢م أخذ ينقد نفسه في فكره الثوري في المرحلة السابقة، يوم أن

كان اشتراكيا فابيا، قبل أن يهتدي إلى الماركسية. قال: «علينا ألا ننسى أن هذه الاشتراكية الفابية التدرجية قد أخرت التفكير الاشتراكي الثوري، ومازلت أذكر أنى طيلة انتمائي إلى الجمعية الفابية سواء وأنا أقيم في لندن، أو بعد ذلك في مصر لم أكن أسمع عن اسم ماركس إلا قليلا جدا، ولم أكن أعرف أن الاشتراكيين في أوربا يهدفون إلى الثورة لا إلى الإصلاح، بل إنهم كانوا يعدون الإصلاح عائقا للثورة وهذا صحيح» . وهو ما جعل سلامة موسى يتحول إلى داعية للاشتراكية العلمية، وإلى أن يكون داعية لسياسة الاتحاد السوفيتي، ويرى أنها «الضمان الوحيد للسلم في العالم» على حد قوله في كتابه «تربية سلامة موسى» .

لكن ينبغي أن يُفهم بأن ماركسية سلامة موسى لم تكن تطابق فهم الماركسيين الماديين الأقحاح، فقد اختلطت في رأسه بالأفكار الطوباوية وغيرها التي تتضاد أكثر مما تتوافق، غير أن أحدا لا يمكنه أن يتجاهل دعوته لأهمية إنهاض المجتمع، وإيمانه بالتطور الاجتماعي ضرورة للتقدم الدائم للحياة.

وأخيرا رحل سلامة موسى عن الدنيا – وهو قابض على معتقداته في ٤ أغسطس سنة ١٩٥٨ وكان لا يزال على حبه للماركسية، وللاتحاد السوفيتي الذي هوى، وهوت معه الماركسية، وبقيت روسيا رأسمالية.

هل كان سلامة موسى أديبا ناقدًا؟:

من خلال قراءة كتب سلامة موسى خاصة «تربية سلامة موسى» يستبين أن تكوينه المعرفي كان علميا ماديا، فقد شب على قراءة مجلة المقتطف ومقالات فرح أنطون، ومباحث شبلي شميل حول نظرية «التطور» لداروين، ونظرية «السوبرمان» لنيتشه، والتطور الاجتماعي لهربرت سبنسر وغيرهم من الأعلام الغربيين، وكان سلامة موسى يتلقى هذه النظريات العلمية، بطريقة غير منهجية، فهو لم يتعلمها عن أساتذة وعلماء داخل غرف دراسية ومعامل علمية، بل كانت قراءة من أوراق صارت

تكوينا ذهنيا عشوائيا، ومن هنا فقد تولد عنده ثقافة ذهنية انتقائية غير متخصصة.

وكان بجانب مجلة المقتطف: مجلة المقطم، التي كان يصدرها بمصر طائفة من المارونيين الشوام الذين جاءوا إلى مصر، واستظلوا بظل اللورد كرومر، ومجلة الجامعة التي كان يصدرها فرح أنطون، ومجلة البيان التي كان يصدرها عبد الرحمن البرقوقي، وكانت هذه المجلة على النقيض من مجلات الجامعة والمقتطف والمقطم، فبينما كانت هذه المجلات تعنى بنشر كل جديد، كانت مجلة البيان تهتم بالقديم، فكان تأثير تلك الأخيرة فيه يكاد يكون معدوما، إذا قيس بالأثر الذي تركته فيه مجلات: المقتطف والجامعة والمقطم التي كانت تنقل كل جديد من الأفكار الأوربية، وكل الأفكار المتولدة عنها في مقالات المثقفين العرب الموالين للثقافة الوافدة من الغرب، قال سلامة موسى: «إن شبلي شميل (المقتطف) وفرح أنطون (الجامعة) هما اللذان صاغا لي حياتي الأدبية والعلمية» . لكن مع ذلك فقد كان تأثير الفترة التي قضاها سلامة موسى بأوربا، وكان في مقتبل الشباب، هو التأثير الأكبر في تكوينه العقلي. ففي السنوات الأربع التي قضاها في الغرب توفر له الاطلاع على أسس الحضارة الأوربية. وأكثر من ذلك فقد عايشها واستمرأها، وبالتالي بغضت إليه التراث العربي والمناصرين له، لأنه - كما زعم - لم يجمع بين الفهم العلمي والتمثل الواعي العميق كما هو الحال في الآداب الأوربية، وأدبيات العلوم الأوربية. وهكذا ظلم سلامة موسى الإرث الأدبي والعلمي العربي. ألم يقرأ الجاحظ صاحب موسوعتي: العلم بكتاب «الحيوان» والبلاغة والأدب بكتاب «البيان والتبيين» وهذا على سبيل المثال لا الحصر؟! الذي زاوج فيه المؤلف العربي بين العلم والأدب.

لكن هذا الجنوح عن القول الصحيح من سلامة موسى لم يمنعه من أن يقول كلاما معقولا ومقبولا في مجموع كتبه ومختاراته. ففي «المختارات» سنة ١٩٢٦ نادى باحترام الأسلاف، على ألا يشغلنا احترامهم عن الاهتمام بالحاضر فقال: «يجب إلى

جانب احترامنا لأسلافنا أن نؤمن بأنفسنا أيضا.. يجب ألا ننسى تاريخنا، ولكن يجب ألا يستغرق هذا التاريخ كل همومنا، ويجب أن نحترم التقاليد المأثورة، ولكن ليس إلى الحد الذي يجعلنا نعيش فيه، يجب أن نفهم مستقبلنا بمقدار ما نفهم من نزعات حاضرنا وتطوراته» وللسبب نفسه رأى أن يكون الأدب نافعا للحياة، بعيدا عن الزخارف اللفظية، ولكي يتحقق ذلك يجب أن يرتبط الأديب بالحياة، وأن يتعمق فيها من جميع نواحيها وفى ذلك يقول في كتاب «في الحياة والأدب» «لأن الأدب وصف للحياة ونقدها ولذلك فالقاعدة الوحيدة للأدب هي أن يطابق الحياة المثلى ويصورها، ولهذا يحتاج الأديب لكي يبلغ هذه الغاية أن يدرس كل ما يتصل بالحياة من أنظمة اجتماعية واكتشافات علمية».

مؤلفات سلامة موسى:

١- «مقدمة السوبرمان» - دار الهلال سنة ١٩١٠م، تم نقح ونشر ضمن كتاب «اليوم والغد» في سنة ١٩٢٧م، المطبعة العصرية.

٢- نشوء فكرة الله - نشر سنة ١٩١٢م.

٣- الاشتراكية الفابية سنة ١٩١٣م.

٤- أشهر الخطب - مختارات من أدب الخطابة في أوربا والعالم العربي - دار الهلال سنة ١٩٢٤م.

٥- الحب في التاريخ - أشهر قصص الحب في التاريخ - دار الهلال سنة١٩٢٥م.

٦- أحلام الفلاسفة - دار الهلال سنة ١٩٢٦م.

٧- مختارات سلامة موسى. ضم مقالاته من سنة ١٩٠٩ إلى سنة ١٩٢٦م، الطبعة الأولى، ثم ضم إليه المقالات التي كتبها من سنة ١٩٢٦م إلى سنة١٩٥٨م.

٨- حرية الفكر وأبطالها في التاريخ - الطبعة الأولى - دار الهلال سنة ١٩٢٧م.

٩- أسرار النفس في العقل الباطن. عرض لاتجاهات علم النفس عن فرويد، وأدلر، ويونج، وريفرز- دار الهلال سنة ١٩٢٧م.

١٠- تاريخ الفنون وأشهر الصور - دار الهلال سنة ١٩٢٧م.

١١- اليوم والغد - المطبعة العصرية سنة ١٩٢٧م.

١٢- نظرية التطور وأصل الأنواع - المطبعة العصرية سنة ١٩٢٨م.

١٣- قصص مختلفة - مترجمة صدر سنة ١٩٣٠م.

١٤- الدنيا بعد ثلاثين عاما، نوفمبر سنة ١٩٣٠م.

١٥- ضبط التناسل سنة ١٩٣٠ بالاشتراك مع أحد الأطباء.

١٦- في الحياة والأدب سنة ١٩٣٠م.

١٧- جيوبنا وجيوب الأجانب - مرتكزات جمعية المصري للمصري سنة١٩٣٠م.

١٨- غاندي والحركة الهندية سنة ١٩٣٤م.

١٩- النهضة الأوربية (ما هي النهضة) - الطبعة الأولى سنة ١٩٣٥م.

٢٠- مصر أصل الحضارة سنة ١٩٣٥م.

٢١- الأدب الإنجليزي الحديث أو التجديد في الأدب الإنجليزي سنة١٩٣٦م.

٢٢- الشخصية الناجحة (علم نفس) سنة ١٩٤٢م عن المطبعة العصرية.

٢٣- حياتنا بعد الخمسين - المطبعة العصرية سنة ١٩٤٤م.

٢٤- حرية العقل في مصر - دار الفجر سنة ١٩٤٥م.

obeikan.com

٢٥- البلاغة العصرية واللغة العربية - المطبعة العصرية سنة ١٩٤٥م.

٢٦- التثقيف الذاتي (يبين تثقيف سلامة موسى خارج جدران الجامعة) لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٤٦م.

٢٧- عقلي وعقلك - مكتبة الخانجي سنة ١٩٤٧م.

٢٨- تربية سلامة موسى - دار الكاتب المصري ١٩٤٧م ثم نشرته مكتبة الخانجي في طبعة مزيدة سنة ١٩٥٨م وهي الترجمة الذاتية لسلامة موسى.

٢٩- فن الحب والحياة، الطبعة الأولى سنة ١٩٤٧م، ثم أضيف إليه فصول ونشر في سلسة كتاب اليوم.

٣٠- طريق المجد (للشباب) المطبعة العصرية سنة ١٩٤٩م.

٣١- محاولات في علم النفس سنة ١٩٥٣م.

٣٢- هؤلاء علموني - الخانجي سنة ١٩٥٣م. وسلسلة اقرأ - طبعة ثانية.

٣٣- الثورات - دار العلم للملايين - بيروت سنة ١٩٥٤م.

٣٤- الأدب للشعب. الأنجلو المصرية سنة ١٩٥٦م.

٣٥- دراسات سيكولوجية - المكتب التجاري بيروت سنة ١٩٥٦م.

٣٦- برناردشو - مكتبة الخانجي سنة ١٩٥٧م.

٣٧- أحاديث إلى الشباب - مجموعة مقالات - مكتبة مصر سنة ١٩٥٧م.

٣٨- مشاعل الطريق للشباب نشر سنة ١٩٥٩م.

٣٩- مقالات ممنوعة - دار العلم للملايين سنة ١٩٥٩م.

٤٠- الإنسان قمة التطور - الشركة العربية للنشر والتوزيع سنة ١٩٦١م.

obeikan.com

٤١- الصحافة حرفة ورسالة - دار سلامة موسى للنشر والتوزيع سنة١٩٦٣م.

٤٢- معجم الأفكار - تحليل للاتجاهات الفكرية في تاريخ الإنسانية - لم يتم.

٤٣- افتحوا لي الباب - قصص مصرية نشرت بصحيفة الأخبار، وصدرت عن دار سلامة موسى للنشر والتوزيع سنة ١٩٦٢م.

كتاب: «ما هي النهضة»:

نشر هذا الكتاب لأول مرة في سنة ١٩٣٥ بعنوان «النهضة الأوربية». وكان ملحقا «للمجلة الجديدة» في عددها الصادر في مارس سنة ١٩٣٥. وقصد به أن يقدم دراسة مركزة للنهضة الأوربية وكيف قامت وتقدمت وحققت النهضة التي تسود العالم الآن، لكي يتمثلها المصريون ويحذون حذوها، ولكن الذين تولوا نشر الكتاب في طبعته الثانية سنة ١٩٦٢ رأوا أن يكون العنوان فيه شمول وعموم فغيروه إلى: ما هي النهضة؟ خاصة وأن بالكتاب مباحث تبين فضل العرب في عصور ازدهارهم على أوربا في العصور الوسطى. ثم صدرت طبعة ثالثة لهذا الكتاب في سنة ١٩٩٣ عن الهيئة المصرية العامة للكتاب - سلسلة التنوير - والمواجهة.

وفى هذا الكتاب رأى سلامة موسى أن النهضة الأوربية التي بدأت في إيطاليا باسم الحركة الإنسانية، كانت ذات مرجعية بشرية لا دينية، حاكت تراث الإغريق والرومان، حيث إن أعمالهم كانت أعمالا بشرية، وليست وحيا غيبيا، وبذلك استطاع الإنسانيون - بحسب سلامة موسى - أن يؤسسوا لحضارة أوربية مادية بلغت أرقى تطورها بعد أربعة قرون، لتسود العالم كله، على أساس بشرى مادي خالص.

والكتاب ليس أبوابا وفصولا، ولكنه مباحث مختصرة لكل مبحث عنوان يلخصه.

في المقدمة يشرح المؤلف معنى النهضة، ويرى أنها تعنى الثراء والقوة والثقافة والصحة والشباب، كما تعنى أن نعمل من أجل ذلك، وأن نعيش اتجاهاتها نحو المستقبل دونما التفات إلى تقاليد الأسلاف، إلا في حال واحدة هي استنباط الأفكار التي تدفع إلى الأمام. وضرب المؤلف مثلا بالفرعونيين (أسياتيك وخوفو) اللذين قبرا دعائم النهضة في قبور، هي الأهرامات، وهى وإن ناطحت السماء فهي قبور أولا وأخيرا لن تمثل نهضة، وهذا ما لم يفعله الفرعون (نيخاو) الذي صنع سفنا تدور حول أفريقيا في حركة للتجارة، واستنباط المعرفة، والعمل من أجل التقدم.

وكما حدث للفراعنة الذين كانوا يمجدون الماضي، حدث في أوربا فيما بين سنة ٥٠٠م وبين سنة ١٠٠٠ م فقد استولى الرهبان على الثقافة، وكان كل همهم البحث في جغرافيا العالم الآخر، وكأنهم يدعون المسيحيين إلى العمل من أجل الموت بدلا من أن يهيئوا لهم سبل الحياة السعيدة، لأنهم كانوا يبحثون في العقائد ويتركون الحقائق التي تعنى القوة والذكاء، ولكن بعد سقوط القسطنطينية في أيدي الأتراك العثمانيين سنة ١٤٥٣م بدءوا يتساءلون: هل تؤخذ المعارف الصادقة من الكتب القديمة، أم تؤخذ من الطبيعة؟ وانتهوا إلى حقيقة الحقائق، وهى أن المعارف تؤخذ من الطبيعة، كما فطنوا إلى أن دراسة تراث القدماء نافعة، ولكن دراسة الطبيعة أنفع.

هذا ما أراد سلامة موسى أن يبنى عليه أركان النهضة، بمعنى ألا نهتم بقبور الماضي لأن الرقى والتقدم يعنى الانطلاق بحيوية جديدة تجدد الفهم بمعاني الحياة والاجتماع والرقى. هذا ما أراد أن يقوله في المقدمة قبل البدء في مباحث الكتاب على الوجه التالي بالعناوين التالية:

١ - القرون الوسطى:

يحدد المؤلف القرون الوسطى من سنة ٤٧٦م إلى سقوط الإمبراطورية الرومانية الشرقية بأيدي الأتراك العثمانيين سنة ١٤٥٣م، وفى هذه الألف من

السنين حل بأوربا التخلف والركود قبل أن تبدأ بوادر النهضة في القرن الخامس عشر، في هذه الألف من السنين كانت أوربا تعيش نظام الإقطاع ورقيق الأرض، إذ عم فيها الفوضى والظلم والفاقة، وتناقص عدد السكان بسبب الحروب المستمرة والأمراض. ولم تنقذ المسيحية أوربا، بل كانت بسبب جمود الرهبان سبب تخلفها.

٢ - انحطاط الثقافة في القرون الوسطى:

ولأن سلامة موسى كان يؤمن بالثقافة الماركسية، فقد أرجع انحطاط الثقافة في أوربا في ذلك الزمان إلى السبب الاقتصادي، ورأى أن الكساد المالي وعدم وجود المال مع الناس، كان السبب في عدم وجود الكتب وبالتالي كان سببا في انعدام العلم والأدب، وكساد التجارة، وتخلف الصناعة، وضمور العقل، بل ضمور الشخصية الإنسانية ذاتها، ويضاف إلى ما سبق فقد كانت أوربا تعتمد في اقتصادها الضعيف على موارد الزراعة، وثقافة الزراعة ثقافة ركود، بخلاف ثقافة الصناعة والتجارة التي تفتح أبواب العالم فتتقدم علوم الفلك والملاحة والكيمياء والطبيعيات.

إذن كانت ثقافة الزراعة التي تؤدى إلى ركود العقل سببا للتخلف بجانب الثقافة الدينية المسيحية، فقد أدت المسيحية في أوربا إلى أن يهجر الناس النزعة العلمية الصناعية، وكل ما يخدم الإنسان من علوم تنفعه في حياته على الأرض، إذ إن الكنيسة شغلت الناس بالتفكير في عالم ما بعد الموت، وظل الحال على ذلك حتى جاء الإنسانيون الذين نقلوا الناس من الثقافة الدينية البحتة إلى الثقافة البشرية المادية. «ولهذا كانت النهضة قائمة على حركة بشرية، أي النظر إلى هذه الدنيا على أنها الغاية التي ليس وراءها غاية، تتقدم بعلوم بشرية لا تمت إلى الغيب بأدنى صلة».

ومن هنا يوجه سلامة موسى خطابه للشباب فيؤكد لهم أن النهضة الأوربية التي أخرجت أوربا من ظلمات القرون الوسطى لا تعنى شيئا آخر غير ترك الغيبيات، والتمسك بالمحسوس»، ثم يشير سلامة موسى إلى أن النهضة الأوربية

سارت في ثلاث حركات كلها بشرية هي:

١- الحركة البشرية الأولى في إيطاليا - قبل أن تنتقل إلى كل أنحاء أوربا. وقد اغتذت هذه الحركة بدرس الإغريق والرومان، فأخرجت الفنون الجميلة من قيودها الدينية، فقد رأوا في علماء الإغريق والرومان وفنانيهم بشرا مثلهم من حيث تناول الفنون والعلوم والصناعات، ونشدان الاستمتاع بالدنيا. فكانت حركتهم في سبيل النهضة دفعا لا تقليدا. كذلك اتجهوا إلى العلم الذي أنجزه العلماء العرب، فأخذوا عنه الطريقة التجريبية في تناول العلم، وطلب الفائدة العملية منه.

٢- الحركة البشرية الثانية: وقد ظهرت في فرنسا ثم عمت أوربا، وكانت ثورة الذهن والعقل الأوربي على يد: جان جاك روسو، وفرانسوا فولتير، وديدرو، وهولباخ، ودالمبير، وكل العلماء الموسوعيين الذين نشدوا الإفادة من كل العلوم وأعلوا من شأن الحرية والمساواة، وحقوق الإنسان.

٣- الحركة البشرية الثالثة: وقد بدأت بداروين صاحب نظرية أصل الأنواع، التي أصبح الإنسان بها مركز السيادة للعالم.

هذه الثورات البشرية الثلاث تعنى بتقرير سلامة موسى: أن ليس للإنسان في هذا الكون ما يعتمد عليه سوى عقله.

٣ - فضل العرب على العالم في القرون الوسطى:

أراد سلامة موسى في هذا المبحث أن يبين فضل العرب على النهضة الأوربية إذ كان العرب يملكون ناصية العلم التجريبي، فكان الأوربيون من محبي العلم يرحلون إليهم بمدن الأندلس وصقلية لكي يتعلموا منهم مناهج العلم التجريبي، وكان النابهون من الأوربيين من أمثال روجر بيكون يحرضونهم على الرحيل إلى العلماء العرب، وأخذ الطرق التجريبية في العلم عنهم. فلقد كان العرب أرقى

الأمم في العالم بدون استثناء، وكانوا يملكون علوم الأرقام والحساب والجبر، والفلك والهندسة وصناعة الورق والطريقة العلمية التجريبية في تناول العلوم. وإن الحضارة الحديثة نهضت على دعائم العلم التجريبي الذي وضع العرب أسسه. لكن سلامة موسى لم يعطِ هذا المبحث حقه من التفصيل، فقد رآه مجرد جسر يعبر عليه لكي يصل إلى أفكار أخرى يوليها الأهمية الأكبر.

٤ - بذور الحركة البشرية الأولى:

لماذا سماها: الحركة البشرية؟ لأن منابعها كانت بشرية. ولأن الناهضين بها اعتمدوا على المراجع البشرية فقط. لدرجة أنهم وهم يتعاملون مع آلهة اليونان والرومان تعاملوا معها بحسب قدراتها النسبية المحددة التي لا تقدر على تغيير نواميس الطبيعة، كما يفعل الله - بتعبير سلامة موسى - في الأديان السماوية، ومن ثم فهو يأسف لفقدان هذا المعنى في التراث العربي الإسلامي. ولهذا فعلماء النهضة الأوربية لم يحفلوا بعقيدة المسلمين، بل كان الذي أهمهم ما عندهم من حركة علمية راقية تقوم على العلم التجريبي التي بها «أصبحت التجربة طريقة جديدة للاقتراب من الحقائق وبحثها».

ورأى سلامة موسى أن الحركة البشرية جرأت علماء النهضة على دراسة العلوم البشرية تقريرا لمصير الذهن البشرى، وكان أول ثمرات هذه الحركة البشرية ثورة القس «مارتن لوثر» على الكنيسة الكاثوليكية، فكانت ثورة الحرية الدينية، وإعلان حرية الضمير، وإحياء نفوس المسيحيين، وتقريرا لمصير النفس الإنسانية «ولولا حرية الضمير هذه، لما أمكن العلماء أن يكتشفوا ما اكتشفوه من حقائق علمية».

٥ - التفسير الاقتصادي للنهضة الأوربية:

لما ظهرت نظرية التفسير الاقتصادي للتاريخ، أصبح العلماء الماديون خاصة الذين يؤمنون بنظرية الجدل الماركسي ومنهم سلامة موسى يبحثون عن تأثير

العوامل الاقتصادية في سير الأحداث، لأن العلاقات الاقتصادية بين طبقات الشعب هي الأساس الذي ينبني عليه سائر ما في النظام الاقتصادي ذلك لأن الحالة الاقتصادية برأي الماركسيين هي التي تقرر سائر الحالات في المجتمع. ولذلك فإن حركة الأمم وانتشارها في الأرض لا يكون إلا لأسباب اقتصادية، التي هي في الأساس صفة المجتمع التجاري الصناعي المتمدن، بعكس المجتمع الزراعي المتقوقع على نفسه الذي تقل فيه الأبحاث العلمية، ويخبو العلم، لأنه يسلم فقط للعقائد الدينية. ولذلك يقترن التخلف بالوسط الريفي القائم على الزراعة اليدوية. هكذا كان حال أوربا على التخلف إلى أن بدأت الهجرة من الريف إلى المدن، وتكونت المدن الكبرى، فإذا كان القرن الخامس عشر فإننا نجد المدن عامرة بالصناعات وبها كليات ومدارس ومتاجر ومصانع ومراكز للحكم، وكان انتقال الناس من الريف إلى المدن دافعا إلى البحث والتنقيب، والدرس العلمي، الذي واكب ظهور الصناعة والتجارة وازدهارها، ثم جاءت حاجة أوربا إلى الامتداد بالملاحة إلى القارات الأخرى، عند ذلك أصبح الأوربيون يحددون مكان وجودهم في التاريخ، وامتدادهم في الجغرافيا، بفضل الثروة والتقدم العلمي.

٦ - رجل العلم أم رجل الأدب؟

أراد سلامة موسى بهذا المبحث أن يؤكد على أن رجل العلم مقدم على رجل الأدب في حاجة الإنسان، قال: «كان هناك في عنفوان عصر النهضة اتجاهان يتصارعان، أحدهما يعنى بالآداب والآخر يعنى بالعلم، وكان يمثل الأول القس المستنير «أرازموس» الهولندي (١٤٦٦ - ١٥٣٦م)، والثاني يمثله «ليوناردو دافنشي» (١٤٥٢- ١٥٩٠م).

مهد أرازموس لثورة مارتن لوثر على الكنيسة الكاثوليكية، لأنه ألف في فضائح الأديرة، وجهل القسس وتعصبهم، فكان مع لوثر يمثلان دعوة حقيقية إلى

الديمقراطية الدينية. أما دافنشي فقد كان رجلا موسوعيا يرسم وينحت ويخترع، حاول اختراع الطائرة، وتشريح الجسم الإنساني، وقسم المملكة الحيوانية إلى فقاريات وغير فقاريات، واهتدى إلى حركة الأرض قبل «كوبرنيكوس».

وبعد أن عرض سلامة موسى فضل رجل الأدب «أرازموس» وفضل رجل العلم «دافنشي» سأل أي الرجلين نختار؟ وأجاب: رجل العلم لأنه أكثر أهمية.

٧ - من موضوعية بيكون إلى مادية هوبز:

رأى سلامة موسى أن للنهضة طريقا يجب أن تسلكه وهو ترك القديم، والتمسك بطرق البحث الجديدة، التي استقلت عن الدين، وأخذت بالتجربة، ومن هنا كانت النهضة تعنى ثورة العلم، وثورة التجربة» .

كان روجر بيكون هو الذي مهد للعلم التجريبي الذي بدأ عمليا في عصر النهضة مع أنه مات في سنة ١٢٩٤م أي قبل عصر النهضة، ولكنه خدم النهضة بدعوته إلى جمع المعارف من الطبيعة لا من الكتب، وكان يقول: إذا فكرنا في موضوع فلا يجب أن نأتمن ذهننا، ولا نثق بالنتيجة التي نصل إليها إلا بعد أن نمتحن هذه النتيجة بالتجربة، لنرى هل هناك فرق بين قياس الذهن وقياس اليد»، وكان يطالب الأوربيين بتعلم العربية ليتيسر لهم قراءة كتب العرب العلمية التي تفسر الطرق التجريبية.

ومهد روجر بيكون لفرانسيس بيكون الذي ألف في سنة ١٦٠٥م أبحاثا دعا فيها إلى ضرورة التجريب باعتباره أساس المعرفة بالاعتماد على الطبيعة لا الكتب، واقترح إنشاء جامعة تجمع العلماء للبحث العلمي، على أن تزود بآلات وأجهزة وأفران للتجارب.

ولم يكن بيكون الأول وبيكون الثاني عالمين بالمعنى الدقيق، ولكنهما كانا داعمين

إلى نهج العلم التجريبي، وقد تبلور هذا المنهج عند «هوبز ١٥٨٨ - ١٦٧٩م» الذي قصر موضوع الفلسفة على المادة وحركتها، لأنه رأى أن مقصود العلم الصناعة، وأن مقصود الصناعة الثراء والرفاهية البشرية، وتحسين حظ الإنسان من الحياة لأنه لا قيمة للعلم أو المعرفة إذا لم ينتفع بها الإنسان في رقى حياته البشرية.

٨ - داعية الشك الفلسفي:

دعا ديكارت (١٥٩٦ - ١٦٥٠م) إلى الشك المنهجي، ومعناه ألا نسلم بشيء إلا بعد أن نعالجه كما لو كان نظرية من نظريات إقليدس. وديكارت فيلسوف عقلي، وإن كان منهجه يحظر الخطأ، فإنه لا يوصل إلى اليقين الذي لا نصل إليه إلا عن طريق التجريب، وهو منهج مغاير لمنهج فرانسيس بيكون الذي يقول: انهض وشاهد بعينيك، وافحص سائرحواسك، ثم جرب بيديك، وحضارة أوربا قائمة على المنهج التجريبي، أي التفكير بالعقل واليد، وكان من أخطاء ديكارت أنه فصل بين العقل والمادة، أو الروح والجسم، حتى جاء «سبينوزا ١٦٣٢ - ١٦٧٧م» فقال إن العقل والمادة هما خاصة من خواص المادة والجسم، فوحد بين المادة والعقل».

٩ - أثر الأدب العربي في الآداب الأوربية:

في هذا المبحث رأى سلامة موسى أن العرب كان لهم فضل على العلم الأوربي بمنهجهم التجريبي الذي صار بذرة المنهج العلمي الأوربي الحديث. كذلك كان للأدب العربي تأثير في الأدب العربي خاصة في الشعر الغنائي الأوربي الذي ظهر أول ما ظهر في جنوب فرنسا متأثرا بفن التوشيح الأندلسي في القرن الحادي عشر. كذلك ذكر سلامة موسى أثر الأدب العربي خاصة ألف ليلة وليلة في النثر الأوربي. وفى الحقيقة لم يكن سلامة موسى موفقا - في هذا المبحث. وكانت معلوماته منقوصة، فقد عرف الأوربيون ألف ليلة وليلة منذ وقت مبكر وقلدها الإيطالي «جيوفاني بوكاتشو G. Bocaccio» فألف على غرارها حكايات الليالي العشر

Dicamerone وأخذ «دانتي Dante» من الروايات الشعبية لقصة الإسراء والمعراج وأخرويات ابن عربي، أسس الكوميديا الإلهية La Divina Commedia، وقبس «سرفانتس» الأسباني رواية دون كيخوته «من قصص الفروسية العربية، وظهرت مدرسة الأسلوب الحلو الجديد Dolce stil nouvo تقليدا للغزليين العرب بصقلية، وغير هؤلاء كثر ممن لم يذكرهم سلامة موسى. وعموما فقد كان الأدب العربي خميرة النزعات الأدبية الجديدة في أوربا، «فقد نقل إليه روح الشرق، فكان أثره في بواعث الأدب الأوربي وغاياته أكثر مما كان في أساليبه وأشكاله الظاهرة».

١٠ - العرب أصل النزعة العلمية:

أنشأ العرب الجامعات في الأندلس في طليطلة وقرطبة وإشبيلية، وفى هذه الجامعات كان العرب يُدرسون علوم الكيمياء والطب والفلك والبصريات والجبر ونبغوا فيها، وهذه العلوم هي أصل النهضة الأوربية التي قامت على العلم التجريبي.

وفى هذا المبحث يبرز سلامة موسى لليهود دورا في هذه النهضة العلمية التي أسسها العلماء العرب، فيزعم أن اليهود ساعدوا على نشرها في أنحاء أوربا عن طريق الترجمة ولعله لا يعلم شيئا عن حركة الترجمة في بلاط الفونسو العاشر الملقب بالحكيم الذي جمع عشرات من العلماء العرب ليعلّموا عشرات من علماء أوربا اللغة العربية لينقلوا العلم العربي وكل الفنون العربية إلى اللغات الأوربية.

١١ - الحركة البشرية الثانية:

إن فضل هذه الحركة على أوربا يرجع إلى الحركة الإنسانية في إيطاليا في أواخر القرن الخامس عشر، وقد بدأت فنية ثم انتهت علمية بأبحاث «جاليليو»، فكانت النهضة الإيطالية خميرة نهضة إصلاحية دينية على يد «مارتن لوثر» في ألمانيا، ونهضة علمية بحتة على يد «فرنسيس بيكون» ثم «نيوتن» بإنجلترا. وعضد هذه النهضة ما

حدث بفرنسا في النصف الثاني من القرن الثامن عشر بيد «روسو» و«فولتير» و«ديدرو» والموسوعيين وهم الذين مهدوا للثورة الفرنسية. ولولا هذه الحركة البشرية الثانية لبقى الاستبداد السياسي مسلطا على أوربا، وكذلك ما يتبعه من استبداد ذهني في الآداب والفنون والعلوم.

ويسلم سلامة موسى بأن النهضة الإيطالية في القرن الخامس عشر، والنهضة الفرنسية= (قمة التنوير) في القرن الثامن عشر كانت تنزعان نزعة بشرية بحتة، قامتا على الذهن البشرى، وسلطان الإنسان بعقله فقط، الذي ليس فوقه سلطان غيبي.

الحركة البشرية الثالثة:

تبدأ هذه الحركة من منتصف القرن التاسع عشر بظهور كتاب داروين «أصل الأنواع» سنة ١٨٥٩ الذي جعل التفكير في أصل الإنسان وحاله ومصيره تفكيرا بشريا ينزع نحو العلم، وليس نحو الدين. كانت هذه الحركة ثورة في علم الأحياء تعالج الجسم البشرى، والذهن البشرى، إذ إن نظرية «داروين» جعلت الإنسان ينظر إلى حقيقة أصله ومصيره – بعيدا عن قدرة خارجية – برأي سلامة موسى.

وبعد أن عرض سلامة موسى الحركات البشرية الثلاث التي قامت عليها النهضة الأوربية نصح الدارسين بألا يتجاهلوا ما بين هذه الحركات البشرية الثلاث من تجانس، إذ «إنها جميعا تتسم بسمة البشرية» وهى القاعدة التي بنى عليها سلامة موسى فكرته عن النهضة، فلكي يحرز الإنسان التقدم برأيه، يجب أن يكون تفكيره قائما على أسس بشرية، وليس على أسس دينية أو غيبية، وكان هذا المسلك من سلامة موسى من أكبر زلاته وسقطاته، إذ غَيَّب دور الدين ونَبَذَه، وتجاهل ما جاء به الدين من وجوب الإيمان بالله وبالغيب، ووجوب إعمال العقل والفكر واليد في البحث والتجريب والانتفاع بما في الأرض والسماء. والإسلام يوجب على المسلم أن يتعلم ويفكر ويبحث، وينمى مواهبه العقلية والتجريبية، ويفيد من كل ما في

الكون، وهو ما كان عليه العلماء العرب في القرون الوسطى في البحث والتجريب، وتحسين أحوال الناس في معاشهم أولا ثم في معادهم.

١٢ - اللغة والنهضة:

كان من أسباب النهضة - مما ذكر سلامة موسى - الاستقلال في البحث العلمي، بفصل التفكير الديني عن العلوم والفنون والآداب، فقد استقل «مكيافيللي» بالسياسة بفصلها عن الكنيسة، واستقل «جاليليو» بالعلم وفصله عن الكنيسة، واستقل «مارتن لوثر» باللغة - ففصل اللغة الألمانية عن لغة الكنيسة اللاتينية - بترجمة الكتاب المقدس إلى الألمانية، وبذلك حول المسيحية إلى ديانة قومية باللغة القومية، وتبعه كل بلدان أوربا.

إن صور الاستقلال عن الكنيسة في اللغة والعلم والسياسة، دفع النفس الإنسانية إلى الاستقلال عن الدين وفصله عن الدولة. وهذا المبحث في هذا الكتاب كان غاية من غايات سلامة موسى إلى النهضة - كما زعم مع أنه كان يحس بأنه يصدم المجتمع الإسلامي الذي يعيش فيه، فقال: «وقد يسوء هذا بعض الناس، ولكننا نقرر الحقائق التي تبدو لنا كما نقرأها في تاريخ النهضة الأوربية».

١٣ - كلماتنا العربية الأوربية:

في هذا المبحث يهدف سلامة موسى إلى إقناع قرائه بإهمال اللغة العربية، واستخدام اللغة الإنجليزية بدلا منها. فيقول: «أريد أن أبين للقراء خاصة أعضاء مجمع اللغة العربية أن لغتنا العربية، تحتوى المئات من المفردات الأوربية، كما أن اللغات الأوربية تحتوى مئات الكلمات العربية، وهذا يمهد لتعاون الوحدة البشرية. وإن تبادل اللغات الكلمات يدل على أن الثقافات تتلاقح وتتخاصب، وتساعد على التفاهم الإنساني. ولذلك فلا ضير علينا من الأخذ بالكلمات الأوربية للمخترعات والمكتشفات» إذ إن اللغة العربية صارت عاجزة عن اللحاق بركب الحضارة الحديثة.

١٤ - قبل خمسمائة سنة:

أراد سلامة موسى أن يبين كيف يثمر الصدام الحضاري حضارة جديدة، ويمثل لهذا الإثمار الحضاري بفتح السلطان العثماني محمد الفاتح للقسطنطينية، فقد نتج عن هذا الفتح كسبا عظيما للإنسانية الأوربية، فقد أيقظ أوربا من سباستها، كما كان سببا في التفكير في اكتشاف أمريكا. ويفسر سلامة موسى ذلك «بأن الأتراك العثمانيين عندما حلوا بأوربا الشرقية، ترك كثير من السكان الأصليين بلادهم، ورحلوا إلى روما وباريس وعلموا أهلها اللغة الإغريقية، فعرفوا عن طريقها علوم الإغريق وآدابهم، فأخصبت أذهانهم بثقافة بشرية لا دينية بمعارف تعتمد على عقول البشر وقرائحهم، وليس على العقيدة الدينية، ومع أن هذه المعارف لم تكن كبيرة كتلك التي أخذوها عن العرب بالأندلس وصقلية، إلا أنها علمتهم منهج التفكير الحر، الذي هو ثمرة من ثمار اكتساح الأتراك للرومان الشرقيين، أما نتائجها بعيدة الأثر فقد تمثلت في:

١ - تحرير الفكر، وسيادة النظرية العلمية بأوربا.

٢ - اكتشاف أمريكا ونزوح الأوربيين إليها.

«ومن هذا الوقت إلى الآن والأوربيون يتقدمون العالم».

ثم قال: «وبعد قرون سقط الأتراك في هاوية التخلف إلى أن جاء مصطفى كمال أتاتورك العظيم في أوائل القرن العشرين فنهض بالشعب التركي، وأعاده إلى النهضة، هذا بزعم سلامة موسى الذي وصف «أتاتورك بالعظيم» وما وصفه بهذا الوصف إلا لأنه حال بين الشعب التركي المسلم وبين الإسلام وألغى الحرف العربي من اللغة، وأعلن العلمانية مادة أصلية في الدستور التركي.

وهكذا خرج سلامة موسى عن حيدته العلمية، وغلبت عليه مذهبيته العلمانية

الشاملة التي تعادى الدين. ولو عاش سلامة موسى إلى اليوم لرأى في تركيا ما لم يره يوم كتب كتابه «ما هي النهضة» فقد عادت تركيا إلى الإسلام وجعلت منه منارة للعلم الذي يضئ المستقبل، مثلهم مثل كل المسلمين الذين يعيشون اليوم في صحوة دينية علمية يلتمسون من كتاب الله ما يحضهم على العلم التجريبي في كل توجهاته. كما يلتمسون منه المثل العليا للأخلاق النبيلة في الوقت نفسه.

١٥ - طبيعة الحضارة الأوربية:

يقول سلامة موسى: «إن الحضارة الأوربية هي الغالبة، ولها السيادة اليوم على العالم، لا يمكن لأمة من أمم الأرض أن تخالفها، ويقول سلامة موسى: ولا أتصور نهضة عصرية لأمة شرقية ما لم تقم على المبادئ الأوربية للحرية والمساواة والدستور مع النظرة الموضوعية للكون وتلك فرية من سلامة موسى، الذي يرى أن شرط التقدم الحضاري أن يكون علمانيا، ينبذ الدين ويتجاهله، دليل تهافت قوله أن المسلمين نهضوا لأكثر من ألف عام، وقد قامت نهضتهم على التمسك بتعاليم الإسلام، وما يأمر به من البر والإحسان والتقوى والأخلاق النبيلة، والحض على التعلم والبحث والتجريب والكشف واستثمار كل ما سخر للإنسان في الكون.

١٦ - الثقافة تؤدى إلى الحضارة:

الثقافة تسبق الحضارة وتؤدى إليها، لأن الثقافة هي الفكر، والحضارة هي المادة، وقاعدة الثقافة هي اللغة، ويعنى سلامة موسى باللغة: اللغة العصرية الراقية كاللغة الإنجليزية التي تقبل التطور وتستوعب الفنون والعلوم واصطناع الألفاظ الجديدة (ص٩٨). ويزعم سلامة موسى وهو يتكلم عن اللغة العصرية الراقية أن اللغة العربية المعاصرة في حاضرها ليست مستعدة لأن تكون لغة علوم وفنون، واصطناع الألفاظ الحضارية الجديدة. وتلك فرية أخرى افتراها، فقد أصدر مجمع اللغة العربية معاجم في مصطلحات كل العلوم والفنون، وأثبت بالدليل القطعي أن

العربية قادرة على أن تواكب الحضارة في الحاضر والمستقبل، كما واكبتها في الماضي.

١٧ - إني أخاف على وطني:

يختم سلامة موسى كتاب: «ما هي النهضة» بطرح الأسئلة التالية:

هل يمكن أن نحيا أحرارا لا نتقيد بقيود الماضي في مجتمع لا تعمل فيه المرأة بجانب الرجل؟

ويجيب بضرورة عمل المرأة مع الرجل جنبا إلى جنب في كل الأعمال. ثم يقول: وإذا فاضلنا بين العلم والأدب فماذا نختار؟، ويجيب: علينا أن نقول العلم، لأنه وسيلة التقدم والتمدن والقوة، وإذا كان لابد من الأدب فليكن أدب الكفاح والرسالة، ثم يقول: وماذا يحتاج القراء العرب؟، ويجيب: يحتاجون إلى التنوير لعقولهم الشرقية لكي تتغير الدنيا أمامهم، وليقرءوا كتب العلم بدءا من داروين ثم الذين أتوا من بعده، وإلا ظلوا في جمودهم، بل يصابون بتعفن الذهن.

ويضيف سلامة موسى: إننا محتاجون إلى كليات لتدريس العلوم، وتحرير الفكر من قيوده، وترجمة مئات الكتب في العلوم لأني أخاف على وطني.

إن سلامة موسى وضع في هذا الكتاب أسس النهضة الأوربية. وهو يطالب بتطبيقها كلها بمصر كما هي، وهى رؤية قريبة من رؤية طه حسين في كتاب «مستقبل الثقافة في مصر» وإن كان عرض سلامة موسى أكثر وضوحا وبطريقة مباشرة، ليس فيها مراوغة طه حسين، ولكن سلامة موسى مثله كمثل كل أصحاب هذا التيار، لم يعملوا حسابا لخصائص الحضارات، فيما عدا العلم المادي التجريبي، فلا خلاف بين الحضارات الإنسانية من أقدمها إلى منتهاها حول التعامل مع الكون والانتفاع به واستثمار كنوزه، سواء كانت في باطن الأرض، أو على سطحها أو في أعماق البحار، أو في الأجواء. ولكن الحضارات قد لا تتلاقى في منازع البشر وأخذهم بالأخلاق والمثل العليا. ومن ثم فمن يقر سلامة موسى إذا أصر على تنوير العرب والمسلمين بفكر

هوبز الإنجليزي الذي نادى بهادية العلم وله في السياسة كتاب «Leviathan التنين» وهو عقد اجتماعي يسمح للحاكم المستبد (ملك إنجلترا) بأن يسحق شعبه إذا أخلوا بالعقد الاجتماعي بينهم وبين الملك. وكذلك كيف نقبل أخلاق روسو، وفولتير، وديدرو، وهولباخ، وداروين، وماركس، ونيتشه، وقد زعموا أنهم أنزلوا الله من عليائه، ووضعوا مكانه العقل، والطبيعة إلها، إن علينا أن نأخذ من هؤلاء ما ينفعنا، ونترك ما لا ينفعنا، فلا نحذو حذوهم، حذو النعل بالنعل. لقد تمرد علماء الغرب وفلاسفته على الكنيسة ودعوا إلى الاستقلال عنها في كل أمور العلم والسياسة والاجتماع والآداب والفنون، لأنهم كما قالوا إن الكنيسة جعلت أوربا تعيش لمدة ألف سنة في ظلام طويل. ولكن الأمر يختلف في أمرنا مع ديننا الإسلام الذي يدعو إلى العدل في الحكم، والعدالة الاجتماعية في تقسيم الأعمال والأرزاق، وكما يؤمن الفرد من الجوع والخوف، ويحضه على التعلم والبحث والتجريب والاكتشاف وإعمال العقل فيما ينفع ويحقق الثروة والقوة، وينهض بالصناعة والزراعة والتجارة، وكل ما ينفع الإنسان في معاشه ومعاده. ويوازن بين ما للدين وما للعقل في الإنسان في نفسه أي في روحه وبدنه. والله المستعان.

*****